فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٨ — تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هنداوى

شوبنهاور

« Schopenhauer »

١٧٨٨ — ١٨٦٠

هذا هو شوبنهاور الذى طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم ، فتركها مظلمة قاتمة ، يخال الجانح إليها أنه نازل فى أنفاق بعضها أقتم من بعض . نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة ، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسى يتبين أن وراء هذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود ؛ وقد خانه الجد فى أول عهده كما يخون العظماء ، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته ، فما زاده ذلك إلا حقداً على الناس ومبالغة فى الانتقام منهم . اتخذ رسله إلى الناس الكتب ؛ فكان أول كتبه « الجذور الأربعة لمبدإ السبب الأتم » ، فخاض كتابه فى صفوف الناس فلم يلق إلا فشلاً ، لأنه لا يزال خامل الاسم ، ولما تزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المغزوة المجرحة ، فالناس فى شغل عن الفلسفة والفلسفة فى شغل عنهم ، ولكن شوبنهاور المتشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعى ، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دوياً ، فقذف بكتابه « العالم إرادة وتمثيل » وهو خير كتبه ، وأكثرها تمثيلاً لشخصيته . فيه من فلسفته الشئ الكثير ، ومن الشعر الشئ الكثير . . . ولكن ذلك لم يقعد ببعض حاسديه عن أن يحملوا على الكاتب وينالوا منه . فاستهل مطلع الجزء الثانى من كتابه بهذه الأبيات (وهى لغوتى)

« لماذا تنفر منا ؟
وترمى بآرائنا . . .
أنا لا أكتب لأسرك وأبهجك
ولكنى أكتب لأعلمك شيئاً »

وقد أسلم كتابه إلى المطابع وولى وجهه شطر إيطاليا موطن الفن ، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير ، فقضى فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة ، هادئة . ويرود مواطن الآثار متأملاً فى تلك العظمة الغائرة فى تلافيف التراب . وقد كانت له ميول غريزية للفن ؛ وكم متع النفس — فى حداثته — بمباهج الحياة ! حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة فى الجامعة ، ولبث شوبنهاور يرتقب عبثاً من يسمع له ، أو يأخذ عنه ، حتى يئس من نجاحه ، وتبرم بمذهب « هيجل » الذى يحتل ذهن الجامعة ، وهو — عنده — مذهب الجنون والمحال ، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب ، ولليهود ذوى الأثرة ، والنساء اللواتى يخرجن الكون من قلق إلى قلق . عاد إلى إيطاليا ليتم دراساته الفنية ، ثم أقام فى « فرانكفورت » وبعد جهاد خمسة عشر عاماً مشت إليه الشهرة ذليلة بعد صدود ، منقادة بعد جموح ، ولقى حتفه عام ١٨٦٠ . وهكذا قدر لشوبنهاور أن يصرع مذهبه الجديد مذهب « هيجل » الذى تقطعت أسبابه ، وتفككت روابطه ، وشغرت الأفكار من بعده وأصبحت تتقبل أى مذهب كان يبعثه مجدد !

يعتقد شوبنهاور بأنه هو الوارث الحقيق لتراث « كانت » وأن « فيخت وشيلنغ وهيجل ما هم إلا أطفال فاسدون » ، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحى جديداً ، وسار بها فى منهاج واضح ، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهباً وعراً لا مأمن فيه لسالكه ، وأخذوها فى بقاع هى فوق « المحسوس » تتمانق أجزاؤها ، وتتلاقى أشلاؤها فى نقط مظلمة مبهمة . والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الموجودة . « وأن الطريقة المثلى فى تأمل الوجود ، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى بواطن الأشياء ، وحقيقة أكنانها الخفية ، ويطلعنا على سر ما يكمن وراء كل حادث ، لا تسأل الكون من أين أتى ؟ وإلى أين يمضى ، ولماذا وجد ؟ ولكنها فى كل لحظة وفى كل خطرة تود أن تعرف ما هو ؟ » وهكذا تحول مجرى العلم النظرى الذى كان يجرى وراء الخيال ، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار ، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه

يقول شوبنهاور : العالم هو أين تمثيلى وتصويرى ، وأين الحقيقة التى تصورها احساساتى التى يحولها الفكر إلى معارف . وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما افترضه معلمه « كانت » من قبل . ولكن العالم عنده هو إرادة ، هو ميول عمياء أو غريزة قاهرة عند الكائنات ، وفاعلية حساسة عند الانسان ، ولكنها

إرادة متمثلة فى كل شئ ، هى جهاد عنيف فى سبيل الحيـاة ، تسعى[1] لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنهـا ، الأرادة هى الشئ القائم بنفسه الذى لا ينفذ إليه فناء . الحياة هى العمل

وقد يخيّل للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوپنهور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذى لابد منه لحى ، ولـكن شوپنهاور لا يبلغ بك هـذه النقطة إلا ليحمل الى نفسك فكرته المسمومة التى تجعل من الدنيا كهفاً مظلماً ، ومعتركاً تتطاحن فيه الأرادات . يصرع بعضها بعضاً : ألم يصرع ألماً ، وأمل مغسول بالدمع يصارع أملاً مخضباً بالدم

الحياة جهاد عنيف . والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء . والكائن كلما زاد سمواً ورقياً زاد تألمه وشقاؤه . وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذى النظام الناقص المضطرب . أما الشجرة فلا تتألم ، فهى غير حساسة . أما رجل العقل ورجل العبقرية فهما أكثر شقاء وألماً ممن خُلقوا محدودى المدارك ، ضيقى الآفاق . والحياة ـ مهما تجردت ـ لنا منها حاجات نريد إدراكها ، ونريد أن ندركها كاملة ، والكمال ظل طارىء لا يثبت ، وقد تجر الحاجات حاجات مثلها مما يجعل الحياة ـ حسب هذا القياس ـ لا تنطوى إلا على شقاء ، فلا ندرك كل ما نتمنى ، ولا نقعد عن التمنى :

وشوپنهاور إزاء هذه الحالات الغامضة ، وجد كماله وراحته فى المذهب البوذى الذى يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال فى الحياة ، ويدعوه إلى الفناء المطلق فى الوجود ، والتأمل فى آياته تأملاً ساكناً ، خالياً من الرغبة والشعور

هذا هو شاطئ النجاة القائم التى أوت اليه سفينة شوپنهاور بعد أن طافت فى أكناف المحيط أعواماً ، وهو مذهب كأن صاحبه قد استمده من تلك السحابة السوداء التى غشيت ألمانيا فى عقلها وشعرها وفلسفتها . ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتأثير الوراثة أن شوپنهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها السوداء ، وعن أبيه أخذ الأرادة . ومهما كان تأثير هذه الوراثة المتنقلة بعيداً فى نفس شوپنهاور ، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التى اكتسحت القطر الألمانى جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة

وبرغم ما بذله شوپنهاور فى إعلاء شأن مذهبه ، وإظهار خطره ، فقد قسا عليه النقد ووجد فى مذهبه خطراً يهدد أمانى الأنسانية ، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن ، وأرادوا من شوپنهاور أن تهديه النتيجة التى بلغها فى أول مراحله « الحياة هى جهاد عنيف » لا إلى مناصرة الألم القوى ، وتثبيت جذوره السامة فى قلوب البشرية ، بل إلى تخفيف أثقاله الرازحة على الكواهل والغوارب . فيعمل بذلك على إنماء الحياة وتكثيرها ، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام ، لا رسالة سخط وامتعاض

ولـكن هب أن شوپنهاور كان فاقداً لروح التفاؤل ، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس ، وقد علموا أن الحياة لاتغدو بمذهبه إلا متجهمة قاطبة . فهل كان شوپنهاور معبراً عما يجول فى صدور قومه ويخفق فى قلوبهم ، كما كان معبراً عما يختلج فى صدره وفى قلبه ؟ قد يكون احتمال الاثنتين معاً من أكبر العوامل التى جعلت من شوپنهاور نبياً للتشاؤم محترماً فى قومه ، وإن كان صاحب التشاؤم قرناً لا يقبل صحبته غراب

لقد كان شوپنهاور وركن تظلله غمامة سوداء ، كثيراً هزؤه ، نسيج وحده فى خلقه . جاءت فلسفته ابنة طبعه ، يحاول أن يقنع بها نفسه ، لا الناس ، لأنه يشعر أن الناس واجد أكثرهم فى الحياة نوراً وسعادة ، ولـكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً

على أن أسلوبه الفلسفى هو الذى أحياه ، برغم أن اعتقاده ـ بالبوذية ـ لم يقم أمره كمذهب . لأن العقول لا تتقبله وإذا تقبلته فلن تفهمه . أما أسلوبه فهو حى يغرى ويملأ النفس جلالاً . فتفكيره فيـه جد وصرامة ، يغلب المنطق على أقواله حتى فى الأشياء البعيدة ، يدل استشهاده الـكثير على سعة اطلاعه ، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً ، حتى لتأتى الفـكرة منه مبنية على خطأ ، وتأتى أجزاؤها صحيحة سليمة ، كأنها البشاعة مبطنة بالجمال ؛ وهو فياض الخيال الذى يتدمج مع الفـكر دون ما نفور . ولعل أعظم ما جاء منه « فكرة الارادة » التى بان تأثيرها فى الأجيال التى عقبت جيل شوپنهاور ؛ فما زالت هذه الارادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً فى العالم الفلسفى والعالم المادى ، ولعل « نيتشه » هو أكبر مولود وضعته الارادة الجبارة بين يدى الحياة ؟

(يتبع)

خليل شتارى

(١) لعل هذه الارادة هى نفس « الذات المطلقة — عند فيخت — وقد رأينا الذات تسعى لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها »